(لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)).

[آل عمران : ١٨٨] .

(**ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا**) أي : لا تظنن يا محمد الذين يفرحون بما أتوا .

(**وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**) أي : ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال .

(**فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ**) أي : فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي : عذاب مؤلم .

وقد ورد في سبب نزولها عدة روايات :

أ- أخرج البخاري في صحيحه : عن عَلْقَمَةَ بْن وَقَّاصٍ (أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ (يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) .

ب- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ (أَنَّ رِجَالاً مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَنَزَلَتْ (لاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ)). متفق عليه .

ج- **وقيل** : يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيح (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبيْ زور) .

د- **وقيل** : نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين على سبيل النفاق من حيث أنهم كانوا يتوصلون بذلك إلى تحصيل مصالحهم في الدنيا ، ثم كانوا يتوقعون من النبي ﷺ أن يحمدهم على الإيمان الذي ما كان موجودا في قلوبهم. ورجح الطبري أنها في أهل الكتاب ، لأن السياق فيهم .

وقال الرازي : واعلم أن الأولى أن يحمل على الكل ، لأن جميع هذه الأمور مشتركة في قدر واحد ، وهو أن الإنسان يأتي بالفعل الذي لا ينبغي ويفرح به ، ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والاقبال على طاعة الله.

وقال الشوكاني : وقد اختلف في سبب الآية ، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملاً بعموم اللفظ ، فمن فرح بما فعل وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل فلا تحسبنه بمفازة من العذاب .

- **قال السعدي** : ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه .

كما قال إبراهيم عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) .

وقال (سلام على نوح في العالمين، إنا كذلك نجزي المحسنين) .

وقد قال عباد الرحمن (واجعلنا للمتقين إماماً) وهي من نعم الباري على عبده، ومننه التي تحتاج إلى الشكر . (تفسير السعدي) .

فائدة : قال المروذي: قلت لأبي عبد الله: قال لي رجل: من هنا إلى بلاد الترك يدعون لك، فكيف تؤدي شكر ما أنعم الله عليك، وما بث لك في الناس؟ فقال أسأل الله أن لا يجعلنا مرائين .

الفوائد :

١- تحذير من يفرح بما أتى فرح منةٍ أو فرح غدر وخيانة كالمنافقين .

٢-التحذير من محبة الإنسان أن يحمد بما لم يفعل .

٣- أن من كان على هذه الحال فلن ينجو من العذاب .

٤- الحذر من الرياء ومن التظاهر بالصلاح وهو على خلاف ذلك .

٥- حب الإنسان للمدح .

(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) .

[آل عمران : ١٨٩] .

(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : خلقاً وملكاً وتدبيراً ، فهو سبحانه مالك الأعيان ، ومالك التصرف فيها .

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فوائد :

الفائدة الأولى : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت ، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

الفائدة الثانية : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

الفائدة الثالثة : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ...) رواه مسلم .

- فإن قال قائل : ابن آدم يملك ؟ فالجواب : أن ملكنا ليس ملكاً عاماً ، فملكي ليس ملك لك ، وملكك ليس ملكاً لي ، ثم نحن لا نملك التصرف فيها ، فتصرفنا محدود حسب الشريعة ، فلو أراد الإنسان أن يحرق ماله فإنه هذا ممنوع ولا يجوز ، فملك غير الله قاصر وغير شامل .
- **قال الشيخ ابن عثيمين** : يشمل ملك الذوات ، أي : ملك ذات السماوات والأرض ، وملك التصرف فيهما ، يتصرف فيهما كما يشاء ، فهو الذي أوجدهما وهو الذي يمسكهما أن تزولا ، وهو الذي يدبر ما فيهما ، وهو الذي يتلفهما ، ويُفنيهما عند قيام الساعة .
- نستفيد من ذلك :

أولاً : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف

فيك كما يشاء .

ثانياً : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه ، إذا قال لك : افعل كذا فافعل ، وإذا قال : لا تفعل : فلا تفعل .

- قوله تعالى (السَّمَاوَاتِ) هذا جمع ، وقد صرح الله في القرآن بأن السموات سبع كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) .
- قوله تعالى (والأرض) جاء في القرآن التلميح بأنها سبع في قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) أي في العدد ، وجاءت في السنة التصريح بأنها سبع في قوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه .

(**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) فلا يعجزه شيء ، صغيراً أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

- **قال الشنقيطي** : جرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) وقال في الحديبية (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) .

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** رحمه الله : الآية عامة ، فهو قدير على كل شيء ، على ما شاءه وما لم يشأه ، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما يشاء ، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة ، ولكنها عائدة على الجمع ، يعني : إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء .

الفوائد :

١- أن ملك السماوات والأرض خاص بالله تعالى .

٢-أن الملك المطلق لله وحده .

٣-عموم قدرة الله .

(الخميس: ١٦/ ١٢/ ١٤٣٢هـ)